وبمتكلم واحد . لحظة فلحظة ، ينفجر العربي في اسرائيل وينزف شعرا . لا يصرخ . البكاء لا مكان له هنا . الساحة خالية لا تحتلها سوى اللحظة الشعرية . ويبدأ محمود درويش رحلته الجديدة .

الارض والفناء القديم : ما هي الارض : « أعثر على الحصى الذي يشبه قلبي وأحوله بأصابعي الملتهبة الى كلمات تجعلني في حوار مع البلد البعيد . نصير لغة قابلة للتجسيد » . الارض هي لحظة لقاء الاشياء جميعها . ليست مكانا نلتف حوله . « ان الرقصة الجنسية التي يمارسها البحر الابيض المتوسط مع خاصرة الكرمل ، تنتهي بولادة بحيرة طبريا . وهناك بحر سموه البحر الميت لانه ينبغي ان يموت شيء في هذه الجنة لكي لا تصبح الحياة مملة . ومن كثرة ما ازدحم الجليل الاعلى بالغابات ، كان لا بد ان تبرهن القدس على ان الصخور قادرة على امتلاك حيوية اللغة . هذا هو وطني » . تصبح الارض لحظة لقاء . لا مكان فيها للتأملات . الحوار الوحيد الممكن هو حوار استنطاق الارض . فالحزن يأتي من مسام الجلد . وعناق شجرة التوت يصير ممكنا . « فالقمر لم يسقط في البئر » . الاشجار التي يزرعها هذا الحوار على جوانب الكلمات ، تخرج وحدها حاملة شيئا يقع بين الحقد والحب . يوحدهما . هذا الشيء الذي نسميه القتال ، يصبح هنا اسما جديدا للارض . فالتجربة التي توحد شعبا بأسره هي اعمق من مجرد لحظة حنين . انها انغراس كامل . « لا بد واننا كنا اشجارا في البداية »، كما يقول سيفريس في مذكراته . نحن هنا لا نرجع الى الماضي . فاللحظة التي تتجمع نقطة نقطة تتحول الى بحر عميق ، يحمل الكنانة الكاملة . « ليست الصحراء اكبر من الزنزانة دائما » . ندخل من الوطن المعاناة الى الوطن الحقيقة اليومية . فترتفع « اليوميات » لتصلنا بأكثر التفاصيل دقة . نتوقف . ثم ندخل لنفاجأ بهذه التفاصيل . فلغة الحوار ولغة المعاناة ، تستمد ألوانها من الارض . الحوار — العداء ، مع العدو الذي يواجهه العربي كل يوم في اسرائيل ، يصبح خنجرا يلمع نصله ويجرح بحقد ، ينغرس داخل اللحم وداخل العصب ، فتنحني اللغة ، ويتحول الحوار تدريجيا من لحظات شعرية تمسك بالواقع وتجعله يتخبط بين يدي القمع :

« انحني يا حبيبتي ، ريثما تمر العاصفة .

— من شدة الانحناء صار ظهري علامة استفهام فمتى تجيب ؟

[المحقق يدير اسطوانة عليها تصفيق كثير] »

الى لغة حوار عادية تعبر من خلال عين تتجول في الذاكرة لتلتقط اكثر الممارسات بساطة ودلالات. يلعب المخاطب دور وضع الاطر العامة لعلاقة تتحرك ببطء . تتلفت الى الزوايا اليومية . ثم يأتي المتكلم في بعض الاحيان ليرفع اصبعا اتهاميا مليئا بالسخرية الحاقدة التي تسمح للتتابع بأن يتحول من مجرد لحظات ترصف وراء بعضها ، الى أزمنة متداخلة . الحوار العادي يأخذ هنا معان جديدة. انه انشداد . الكلمة تتحول الى سؤال . والاجوبة لا تزال بعيدة . لذلك حين « يلقون عليك القبض وانت ترتكب الحلم » لا تتعجب . تفكر بالاجابة على أسئلة المحقق . وتصيغ حلمك من جديد على شكل نداء يتخاطب مع الارض. وحين يرتفع المخاطب في نهاية هذا الفصل ، فانه يتحول من شكل غني ، كنت تعتقد انه يحقق مسافة ما بين الكتابة والكاتب الى اتهام صريح. « تجد نفسك خارج الحرب وخارج الانتصار وخارج الهزيمة وخارج انسانيتك . هكذا تصبح شجرة او حجرا او اي شيء في الطبيعة ». في هذا الحوار، يتحقق بعد الكتابة . انها ممارسة. ليس الادب مجرد لوحة تلصق . انه بعد ، يستطيع ان يحقق انفصال النص عن كاتبه ، ليصبح هذا النص كيانا قائما في ذاته . لكن درويش لا يذهب الى هذا الحد ، يحقق الانفصال بينه وبين النص عبر اللجوء الى الحوار المباشر . ثم لا يترك للنص حرية الكينونة في ذاته . النص يكون فينا او لا يكون ابدا . فيتحول النص من مجرد لحظة غنية تتكون ببطء او ترتفع بصوت عال الى حياة جديدة تتغلغل في الاعصاب وتقيم هناك . هكذا تستطيع الشهادة التحول من شهادة سلبية الى شهادة ايجابية . من تحليل سريع الى شعر يمد يديه ليحيط بالتجربة كاملة وفي اكثر لحظاتها التفاتا الى الجسد .

في ديوانه الاخير « أحبك أو لا أحبك » استطاع محمود درويش ان يقفز بالتحلق الفلسطيني حول الارض ، من البعد القروي الذي يجد في الارض رحما ، الى بعد بلا فضاء . فالارض تتحول الى لاجئة في جراح اللاجيء . وهو هنا يتابع . يتابع